جبل طارق في العصر الإسلامي

مقصد العلماء والأدباء

رشيد العفاقي
طنجة ـ المغرب

يقع جبل طارق Gibraltar على مضيق بحري يُنسب إليه: مضيق جبل طارق Estrecho de Gibraltar، وكان يسمى قديمًا: بحر الزُّقاق(١)، وقد ورد بهذا الاسم في المصادر المسيحية القديمة: Azucaque(٢).

كان لهذا المضيق البحري دور متميِّز في تاريخ المغرب والأندلس(٣)، إذ بفضل موقعه الجغرافي الإستراتيجي كان يسمح بالسيطرة على الملاحة البحرية بالغرب الإسلامي، ومراقبة حركة التجارة البحرية، كما كان درعًا واقيًا ضد هجمات الأعداء الطارئة.

لذا عملت كل الممالك والدول، قديمًا وحديثًا، على امتلاك موطئ قدم على هذا المضيق، بدافع المصالح التجارية والسياسية والعسكرية. ولا يزال الصراع لامتلاك الثغور التي تقع على هذا المضيق قائمًا إلى أيامنا هذه، فإسبانيا لاتزال تحتل مدينة سبتة المغربية، وإنجلترا تحتل جبل طارق منذ زمن طويل، وكانت مدينة طنجة إلى حدود عام ١٩٥٦م مستعمرة دولية تلتقي فيها مصالح الكثير من الدول الاستعمارية.

وقد احتدم الصِّراع طوال العصور الوسطى على امتلاك الثغور التي تقع على هذا المضيق البحري، وهي من جانب برّ المغرب: طنجة، وقصر المجاز، وسبتة. ومن جانب برّ الأندلس: جبل طارق، والجزيرة الخضراء Algeciras، وطريف Tarifa.

وحين احتلت هذه الثغور في القرن ٩هـ/١٥م من طرف القشتاليين والبرتغاليين خرجت السيطرة على الزُّقاق (مضيق جبل طارق) من أيدي المغاربة والأندلسيين، وكان هذا بمنزلة كَتْم أنفاس للمغرب والأندلس وقطع أوصالهما.

والملاحظ أنه ابتداءً من وقعة العقاب Las Navas de Tolosa في سنة ٦٠٩هـ قامت قشتالة Castilla بتهديد الثغور الأندلسية بشكل مستمر في محاولة لاحتلالها، وقد ساعدت الهزائم التي منيت بها الجيوش العربية بالأندلس على تحقيق أحلام قشتالة، إذ ما لبث أن انهزم المسلمون هزيمة قاسية بمياه مضيق جبل طارق سنة ٧٤١هـ بمعركة تعرف في المصادر العربية بـ: وقعة طريف، وفي المصادر المسيحية بـ: Batalla Del Río Salado.

وعلى إثر هذه الهزائم استطاعت قشتالة أن تحتل جبل طارق والجزيرة الخضراء فترة من الفترات، إذ كان المغاربة والأندلسيون ينجحون أحيانًا في تحرير أحد هذه الثغور، لكن أمام قوة الأسطول الحربي القشتالي وحليفته أراغون Aragon

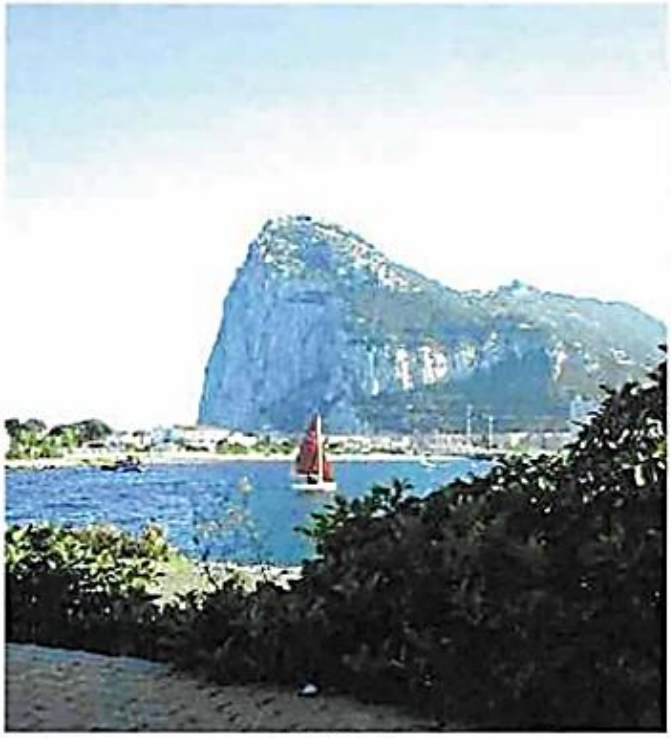

منظر حديث لجبل طارق

انتهى الأمر باحتلال الثغور الأندلسية نهائيًا.

منزل الجيوش المغربية

أما البرتغاليون فقد نجحوا بشكل كبير في احتلال الثغور المغربية، فسقطت بأيديهم سبتة سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، وقصر المجاز سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م، وطنجة سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م.

وجبل طارق يُنسب إلى طارق بن زياد حاكم مدينة طنجة الذي جاز بجيوشه إلى الأندلس وافتتحها في شعبان من سنة ٩٢هـ(٤)، ويسمى أيضًا بجبل الفتح نسبة إلى فتح الأندلس، إذ كان أول موضع نزل به الفاتحون العرب.

ولما نزل طارق بالجبل تحصن به، وقام في أصحابه خطيبًا، وحثهم على الجهاد ورغبهم فيه، ثم ألقى خطبته المشهورة، التي أولُّها: «أيها الناس أين المفر؟ البحرُ من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام»(٥).

هذه كانت بدايات جبل طارق تحت الحكم العربي، ويبدو أن طارق بن زياد أقام به بعض الوقت، وبنى به حصنًا بقيت أسواره معروفة إلى عصر ابن جُزَيّ الغرناطي (ت:٧٥٧هـ)، وكانت تسمى في وقته بسور العرب(٦).

وظل جبل طارق منزلاً للجيوش المغربية الواردة على الأندلس للجهاد، وكان الشاعر ابن زيدون يرى أن جبل طارق هو أفضل موضع تنزله العساكر المرابطة بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٩هـ(٧).

وجبل طارق لا يبعد كثيراً عن مدينة الجزيرة الخضراء، فقد وصفه الحميري بقوله: «جبل طارق، فيه خرج طارق بن زياد ومنه افتتح الأندلس وهو عند الجزيرة الخضراء، وبجبل طارق مَرْسًى يَكنّ من كُلّ ريح...، وبين الجبل والجزيرة، أميال، وهو جبل منقطع مستدير في أسفله كهوف فيها ماء(٨).

أما ابن صاحب الصلاة (ت: ٥٩٤هـ/١١٩٨م) الذي أقام بجبل طارق بعض الوقت فوصفه بما يأتي: «وجبل طارق هذا شريف البُقعة كريم التربة عظيم المَنَعة، باسقٌ مع أعنان السماء، يكادُ في المسامتة إلى الجوزاء، وكلما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه، نَمَا وزكا وفَضَل، وجلّ وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل، واستقل من جميع الفواكه كشجر التين، والعنب، والتفاح، والكمثرى، والسفرجل، والمشمش، والإجّاص، والأُترج، والموز، وغير ذلك على ضيق ضفته المستدة كالحبل المستمدة من الطّل والوبْل وماؤه عذب زُلال»(٩).

إعمار الجبل

ويبدو أن جبل طارق ظل حصناً عسكرياً وممسكاً للجيوش المجاهدة والمرابطة، تابعاً لمدينة الجزيرة الخضراء التي كان أهلها يفدون إلى الجبل للتنزه والرُباط.

أما البداية الحقيقية لتعمير جبل طارق وتمنيعه بكل مرافق وخطط المدينة الإسلامية فكانت في العصر الموحدي، حين أمر الخليفة عبدالمؤمن بن علي الكومي ببناء مدينة كُبرى في جبل طارق بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ، ويُسمى هذا العام بعام الأخماس(١٠).

ويُعدّ ابن صاحب الصلاة شاهد عيان على أعمال البناء التي تمت بمدينة جبل طارق في زمن لا يتعدى ٧ أشهر(١١)، فقد ذكر أن الخليفة عبدالمؤمن كلّف ابنه أبا سعيد والي غرناطة بالإشراف على البناء، فانتقل هذا الأخير إلى جبل طارق مع جُملة من أعيان قرطبة وإشبيلية، وجماعة من المهندسين في فن البناء أشهرهم الحاج يَعيش المالقي الذي كان الموحدون يعتمدون عليه في المشروعات المهمة. وأمرهم أبو سعيد أن يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعُرفاء من جميع بلاد الأندلس ويستعجلوا بالوصول إلى جبل طارق، فامتثل الناس لذلك من الأجناد والقواد والكتاب وأهل الحساب لتقييد الأشغال والإتفاق على الأعمال. فجاء من إشبيلية العريف أحمد بن باسّة بجميع البنائين، وهو من أبرز الخبراء الذين اعتمدهم الموحدون في مشروعاتهم المعمارية الكبرى، إذ كان شيخ العرفاء في وقته وهو الذي قام ببناء جامع إشبيلية الأعظم La Giralda ونزل البناؤون بالجبل في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، وأحكموا فيه البناء من القصور المشيدة والديار، واخترعوا في أسسها طبقاتاً والحنايا لتعتدل بها الأرض مبنية بالحجر المنجور والجير.

وكان المهندس الحاج يعيش المالقي مدة إقامته بجبل طارق للبناء قد صنع في أعلاه رحىً تطحن القمح بالريح، واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور بناءُ السور والباب المسمى بباب الفتوح في الفُرجة التي كان يُدخل منها إلى الجبل بين البحر المُحدِق به كلا جانبيه. وكان الوالي أبو سعيد قد لازم الاجتهاد، يتطلع مع الساعات مبلغ أحوال المباني، والفعلة يجتهدون في أعمالهم، وينصحون في الاشتغال قدر طاقتهم من أحوالهم، فظهر البناء في أقرب مدة وأبدى عليه العامل جُهده(١٢).

وأكثر ما سردناه هو من كتاب «المَنّ بالإمامة» لابن صاحب الصلاة الذي عاصر فترة بناء مدينة جبل طارق التي أصبحت تتمتع بالحصانة والمَنَعة حتى جاءت «فرنْجاً في المعاقل لا يتمكن لطامع فيها طَمَعٌ، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزَعٌ من برٍّ و لا بحر»(١٣).

أما عبدالواحد المراكشي (ت: ٦٢٥هـ/١٢٢٨م) فذكر أن عبدالمؤمن «نزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح، فأقام به أشهراً(١٤) وابتنى به قصوراً عظيمة، وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم، ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة وإشبيلية، وما والى هذه البلاد وانضم إليها. وكان له بهذا الجبل يومٌ عظيمٌ، اجتمع له وفي مجلسه فيه وجوهُ البلاد ورؤساؤها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله، واستدعى الشعراء في هذا اليوم..»(١٥).

> كان استيلاءُ النصارى على جبل طارق سنة ٧٠٩هـ أكبر نكبة أصابت الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى، فقصَد ابن الأحمر ملك غرناطة مدينة فاس مستنجداً بملك المغرب أبي الحسن المريني

كما لم يفُت ابن عبدالمنعم الحميري (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) أن يُسجل حدث بناء مدينة جبل طارق في مُعجمه الجغرافي المسمى «الروض المعطار في خبر الأقطار»، فقال: «وكان أحد خلفاء بني عبدالمؤمن أمر ببناء مدينة على جبل الفتح، فندب إليه البُناة والنجارين وقُطّاع الحجر للبنيان والجبار من كل بلدة، وخطت فيه المدينة، وقدم إليه من المال ما يُعجز كثرةً، واتخذ فيها الجامع وقصراً له وقصوراً تجاوره للسادة بنيه، وتوالى العمل في ذلك، وأقطع أعيان وجوه البلاد فيه منازل نظروا في بنائها بعد أن حفروا في سفح الجبل مواضع تنبع فيها الماء، وجمع بعضها إلى بعض حتى سال منها جدول عمّ المدينة لأنفسهم وماشيتهم من أعذب الماء وأطيبه، يصُب في صحن عظيم اتُّخذ له، وأجري إلى الجنّات المغترسة بها عن أمره. فللحين ما جاءت مدينة تفوت المدن حُسناً وحصانة، لا يُدخل إليها إلا من موضع واحد قد حُصّن بسور منيع من البنيان الرفيع، وسميت بمدينة الفتح،

وقالت الشعراء بها، ثمّ جاز إليها في سنة ٥٥٦هـ، ووَرَدَتْ الوفود عليه هناك فتلقاهم بالتكرمة»(١٦).

ويبدو أنّ رواية ابن عبدالمنعم الحميري تتخللها بعض الأخطاء الطفيفة: فالأمر ببناء مدينة بجبل طارق هو الخليفة عبدالمؤمن بن علي لا أحدُ أبنائه، وكانَ ورودُهُ على جبل طارق سنة ٥٥٥هـ لا سنة ٥٥٦هـ.

وفود في قصر الخليفة

ولما كملت أعمال بناء مدينة جبل طارق قرر الخليفة عبدالمؤمن أن يرحل إليه ليقف بنفسه على ما أبدعه البناؤون والمهندسون الأندلسيون في فنّ البناء الذي تمّ بالجبل. وهكذا ورد الخليفة على جبل طارق في شهر ذي القعدة من سنة ٥٥٥هـ/

من الآثار الإسلامية في الأندلس

ديسمبر ١١٦٠م، ووَفَدَ إلى الجبل لاستقباله جميع أشياخ وأعيان ورؤساء غرناطة وقرطبة وإشبيلية كأبي بكر الغافقيّ والحافظ أبي بكر بن الجدّ، وسائر أهل النباهة من الكبراء والشعراء، ولمّا علم الخليفة بوصولهم أمر أن تدخل الوفود إليه بمجلسه في قصره بجبل طارق، فتقدم القاضي أبوبكر الغافقي لتعيين أهل إشبيلية Sevilla وأهل الغرب Algarbe وتَسْمِيتِهِم، وكذلك قاضي قرطبة Cordoba لتعيين أهل قرطبة ونظرها.

وقام الخطيب أبو الحسين الإشبيلي وصاحبه أبو محمد بن جَبَل، وأبو محمد المالقي وخطبوا على انفراد، كُلّ واحد منهم خُطبة في حق البيعة ولزومها، ثمّ أذِنَ الخليفة للشعراء في الإنشاد(١٧).

فكان أبو عبدالله محمد بن حبُّوس الفاسي أول من أنشد، إذ أنشد في ذلك اليوم قصيدة أولها:

بَلَغ الزمانُ بهَدْيِكُم ما أمَّلا
وتَعَلَّمَتْ أيْامُهُ أنْ تَعْدِلا
وبحَسْبِهِ أنْ كانَ شيئًا قابلاً
وَجَدَ الهداية صورةً فتَشَكَّلا(١٨)

وأنشد في ذلك اليوم أيضًا: الأصمّ المَرْوانيّ، الذي مَدَحَ عبْد المؤمن بقصيدة طويلة معارضًا بها بائية أبي تمام: السَّيْفُ أصدقُ أنباء من الكتب. منها:

مَا بِلْعِدا جُنَّةٌ أوْقى من الهرب
أين المفرُّ وخيلُ الله في الطَّلَبِ
وأيْنَ يذهبُ مَنْ في رأس شاهقةٍ
إذا رمته سماءُ الله بالشُّهب

ومنها:

وطوَّدِ طارقَ قد حَلَّ الإمامُ به
كالطُّور كان لموسى أيمن الرُّتَبِ

لوْ يَعْرِفُ الطَوْدُ ما غَشَّاهُ من كَرَمٍ
لَمْ يَبْسِطِ النُّورُ فيهِ الكفَّ للسُّحُبِ
ولَوْ تَيَقَّنَ باسْمٍ حَلَّ ذِرْوَتَهُ
لَصَارَ كالعَيْنِ من خَوْفٍ ومِنْ رَهَبِ
مِنْهُ يُعاوِدُ هذا الفَتْحَ ثانيةً
أضعافَ ما حدَّثوا في سالفِ الحِقَبِ
ويَلْبَسُ الدِّينُ غَضّاً ثوبَ عِزَّتِهِ
كأنَّ أيامَ بَدْرٍ عنهُ لم تَغِبِ(١٩)

لما كملت أعمال بناء مدينة جبل طارق قرر الخليفة عبدالمؤمن أن يرحل إليه ليقف بنفسه على ما أبدعه البناؤون والمهندسون الأندلسيون في فنّ البناء، ووفد إلى الجبل لاستقباله جميع أشياخ غرناطة وقرطبة وإشبيلية وأعيانها ورؤسائها

ومِنْ مشهوري شعراء الأندلس الذين أنشدوا قصائدهم بجبل طارق حين نزل به الخليفة عبدالمؤمن: الشاعر الإشبيلي أبو العباس أحمد بن سيد الملقب بالنص، أنشد قصيدةً أولها:

غُضَّ عن الشمس واستقصر مدى زُحَلِ
وانظر إلى الجبل الراسي على الجبل
أنّى استقرّ له أنّى استقلّ به
أنّى رأى شخصه العالي ولم يَزَلِ
أنّى أطاقَ له حملاً وقد عَجَزَتْ
عنه الصدور وفيها كلُّ مُحْتَمِلِ
ومَنْ تكُنْ رُحْبُ الأذهان ضيقةً
عن حمله لم يَسَعْهُ أرحب السُّهُلِ
لكن رأى جارةً ذا اللُّج يحملُهُ
فكان ما كان بين العجز والفشل
لِتَهْنَ أندلسٌ أنْ زارها مَلِكٌ
أحيا وأنشر فيها ميِّتَ الأمل(٢٠)

كما أنشد في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرُّصافي، قصيدة مشهورة في الخليفة عبدالمؤمن، أولها:

لوْ جِئتَ نارَ الهُدى مِنْ جانبِ الطُّورِ
قَبَسْتَ ما شئتَ من علمٍ ومن نورِ
مِنْ كلِّ زهراء لم تُرْفَعْ ذُؤابتُها
ليلاً لِسارٍ، ولم تُشْبَهْ لِمَقْرُورِ

ومنها:

يا دارَ دارِ أميرِ المؤمنين بِسَفْـ
ـحِ الطَّوْدِ، طَوْدِ العُلى: بُورِكتِ في الدُّورِ
ذاتَ العَمادَيْنِ مِنْ عِزٍّ ومملكةٍ
على الأساسَيْنِ مِنْ قُدْسٍ وتَطْهيرِ
ما كانَ بانيكِ بالواني الكرامةِ عَنْ
قَصْرٍ على مجمَعِ البحرينِ مَقْصورِ

ومنها أيضاً:

حتَّى رَمَتْ جَبَلَ الفَتحَيْنِ مِنْ كَثَبٍ
بساطعٍ مِنْ سَناهُ غيرِ مبهورِ
لله ما جَبَلَ الفَتْحَين مِنْ جَبَلٍ
مُعظَمِ القَدْرِ في الأجبالِ مذكورِ
من شامخِ الأنفِ في سَحْنائهِ طَلَسٍ
لهُ من الغَيْمِ جَيْبٌ غيرُ مَزْرُورِ
مُعَبِّراً عَنْ ذُراهُ عَنْ ذُرَى مَلِكٍ
مُسْتَمْطِرِ الكَفِّ والأكنافِ ممطورِ
تُمْسي النجومُ على إكليلِ مَفْرِقِهِ
في الجَوِّ حالِمَةً مِثْلَ الدَّنانيرِ
وربَّما مَسَحَتْهُ مِنْ ذَوائبِها
بِكُلِّ فَضْلٍ على قَوْدَيْهِ مَجْرورِ

إلى أن يقول:

مُقَيِّدُ الخَطْوِ جَوَّالُ الخواطرِ في
عَجيبِ أمْرَيْهِ مِنْ ماضٍ ومنظورِ
قد واصلَ الصَّمْتَ والإطراقَ مُفْتكِراً
بادي السَّكِينَةِ مُقْفِرَ الأساريرِ
كأنَّه مُكْبِدٌ ممَّا تَعَبَّدَهُ
خَوْفُ الوعيدَيْنِ مِنْ دَكٍّ وتَسْييرِ
أخْلِقْ به وجِبالُ الأرضِ راجِفَةٌ
أنْ تطمئنَّ غَداً مِنْ كُلِّ محذورِ
كَفاهُ فَضْلاً أنِ انْثالَتْ مَواطِنُهُ
نَعْلاً مَلِيكٍ كَريمِ السَّعْيِ مَشْكُورِ

والقصيدة طويلة، بالغ فيها الرُّصافي البلنسي بامتداح جبل طارق والخليفة عبدالمؤمن الوارد عليه(٢١).

ولمَّا مَدَحَ أبو القاسم أُخَيْل بن إدريس الرُّنْدي عَبْدَ المؤمن في جبل طارق بقصيدة أوَّلها:

ما الفخرُ إلا فخرُ عبد المؤمن
أثنى عليه كلُّ عبدٍ مؤمنِ

علَّقَ عليه أبو جعفر بن سعيد، بقوله: دَعَاهُ التجنيس إلى الضَّعف والخروج عن المقصود، والأولى أن لو قال «شاد الخلافة وهو أوَّلُ مُبْتَنٍ»(٢٢).

وأبو جعفر صاحب هذا التعليق هو الوزير أبو جعفر بن سعيد العنسي، كان في وفد غرناطة الذي جاء لملاقاة الخليفة عبدالمؤمن بجبل طارق، وكان أبو جعفر في حداثة سنِّه فدخل على الخليفة، وأنشده قصيدة منها:

تكلَّمْ فقد أصغى إلى قولكَ الدهرُ
وما لسواكَ اليوم نهيٌ ولا أمرُ
ورَمْ كلَّ ما قد شئتَه فهو كائنٌ
وحاول فلا برٌّ يفوتُ ولا بحرُ
وحسبُك هذا البحر فالأ فإنَّهُ
يقبِّلُ تربًا داسَهُ جيشُكَ العَجْرُ
وما صوتُهُ إلا سلامٌ مردَّدٌ
عليك وعن ثغرٍ بقربِكَ مُقفِرُ
يجيشُ لكي يلقى أمامكَ مَنْ غدا
يُعانِدُ أمرًا لا يقومُ لهُ أمرُ
أطلَّ على أهلِ الجزيرةِ سعدُها
وصدَّقها من ذلكَ الخبرِ الخبرُ
فمنا «طارقٌ» إلا لذلكَ مُطْرِقٌ
و«ابن نُصَيْر» لم يكُنْ ذلكَ النَّصْرُ
هُنا مَهَّدَاها كي تَحُلَّ بأفقِها
كما حلَّ عندَ التمِّ بالهالةِ البدرُ(٢٣).

ومن المنشدين أيضًا بمجلس عبدالمؤمن في جبل طارق الشاعر أبوبكر بن المُنَخَّل الشَّلَبيّ الذي قال في ذلك الجمع مُهَنِّئًا مادحًا:

فتحتُمْ بلادَ الشِّرْكِ فاعتمدُوا الغربَا
فإنَّ نسيمَ النَّصْرِ بالفتحِ قد هبَّا
أصَرْتُمْ إليهِ الخيلُ وهي أجادلٌ
فسالتْ بكُمْ بحرًا وطارت بكم ركْبَا
ودَسْتُمْ بها هامات كُلِّ مُضَلَّلٍ
ولم تتركوا عُجْمًا هُناكَ ولا عُرْبَا(٢٤)

وفي مَجْلِس الخليفة عبدالمؤمن بجبل طارق دائمًا، قام الشيخ أبو عبيدالله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجيّ مُنْشِدًا قصيدة، أوَّلها:

تلألأ مِنْ نُورِ الخلافةِ بَارِقُ
أضاءتْ بِهِ الآفاقُ والليلُ غاسِقُ
وأشرقتِ الدنيا بِهِ فكأنَّها
منَ البِشْرِ في كُلِّ الجهاتِ مَشارِقُ
وهَبَّ بِرَيَّاهُ النَّسيمُ فخلْتُهُ
يُخَبِّرُنا أنَّ الخليفةَ لاحِقُ
إلى جَبَلٍ قدْ كانَ للفتحِ منزلاً
ولاذَ بِهِ بالفتحِ موسى وطارقُ(٢٥)

وثمَّة شاعرٌ آخر ورد على جبل طارق في تلك الأيام وهو ابنُ لُبَّال الشَّريشيّ (٥٠٨هـ - ٥٨٢هـ) الذي دخل مجلس الخليفة عبد المؤمن وأنشد هذَيْن البيتين:

تكامَلْتَ فيكَ أوصافُ خُصِصْتَ بِها
فكُلُّنا بِكَ مَسْرُورٌ ومُغْتَبِطُ
فالسِّنُّ ضاحكةٌ والكفُّ ماتِحَةٌ
والصَّدْرُ مُتَّسِعٌ والوَجْهُ مُنْبَسِطُ

وهذان البيتان يُشْبِهان لأبي الشيص الخُزاعيّ، وكان ابْنُ تُومَرْت (المؤسس الرُّوحي لدولة الموحدين) يُنْشِدُهُما إذا أبصر عبدالمؤمن(٢٦).

وهؤلاء هُم الشعراء الذين أنشدوا قصائد المديح والتهاني بمجلس الخليفة عبد المؤمن بجبل طارق، وثمَّة أدباء وشُعراء آخرون كانوا حاضرين بالجبل في تلك الأيام إلا أنَّ المصادر التاريخية لم تَذْكُرْهُم.

وقد رأينا أنَّ كُلَّ الشُّعراء مدحوا الخليفة بمُنتهى الكرم، كما كان الخليفة كريمًا معهم، إذْ أمَرَ بعشرة دنانير «لكُلِّ شاعرٍ وأمَرَ بعشرين مِثقالاً لكُلِّ مَنْ وفَدَ إليه من قاصدٍ لرؤيته وزائر»(٢٧).

وروى ابْنُ صاحب الصلاة عن أبي القاسم بن أبي هارون، قال: «كُنْتُ واحدًا من جميع الوفد الذين بادروا بقصدهم ووفدهم مع أهْلِ إشبيلية ومَنْ كان تحت طاعة التوحيد من أهْلِ الأندلس

إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه بجبل طارق وأقمنا معه نحو ٢٠ يوماً..»(٢٨).

وكان انصراف عبدالمؤمن عن جبل طارق إلى حضرة مُرّاكُش في أوائل سنة ٥٥٦هـ(٢٩)..

ويبدو أن لقاء الخلفاء الموحدين بأهل الأندلس في جبل طارق، وإقامتهم لمجالس الشعر بذلك الثغر الأندلسي الجنوبي أصبح تقليداً سار على نهجه أبناء عبدالمؤمن فيما بعد.

ففي ربيع الأول من سنة ٥٦٠هـ اجتمع أبو حفص الموحدي بأخيه أبي سعيد في جبل طارق، ويُخبرنا ابنُ صاحب الصلاة، الذي كان في جُملة طلبة الحضر الواردين على أبي حفص بجبل طارق(٣٠)، أنّ الخبر والحُبور عمّ «بجميع الجهات والأصقاع ووفد أهلُ إشبيلية والفقيه ابن الجدّ، وقاضيهم أبو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد بن المُعلّم المُستناب بإشبيلية، وأهل الغرب، وأهل قُرطبة وغرناطة، والشُعراء للتّهاني،، باتصال البشارات والأماني، وجلس السّيدُ الأعلى للناس للسلام في القصر المُشيد في البنيان الرفيع الشأن، فدخل وفدٌ بعد وفد، وخطبوا وأطنبوا، وأطعموا الطعام، وأنيلوا المنزل الرّحب والأنعام، وأنشد الشُعراء أشعارهم وقصوا فيما وفدوا به أوطارهم، وحبا السيّدُ الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكسا على أتمّ الخيرات، ودامت الإقامة في الجبل ١٥ يوماً في مسرّة متّصلة، ومبرّة مُشتملة»(٣١).

إنّ هذه هي الأجواء التي كانت تسود بجبل طارق حين يَحلّ به أحد الملوك الموحدين، وقد نقلها إلينا شاهد عيان هو ابن صاحب الصلاة مُؤلّفُ «المنّ بالإمامة» الذي كان واحداً من الذين رفعوا شعراً إلى السيد أبي حفص الموحّدي الذي وعده «بعُدّة جميلة وآمال كفيلة»(٣٢).

كما أنشد أبو عمر بن حربون قصيدة، أولها:

قد حصحص الحقُّ لا ريبٌ ولا فندُ
هذي الفتوحُ التي كانوا بها وعدوا
خذوا بحظكمُ يا أهلَ أندلس
فليس فيها لغاوٍ بعدها رشدُ

ومنها:

أنظرْ إلى مجمع البحرين كيفَ حوى
منَ الفضائل ما لمْ يحوِ بلدُ
لاقى الكليمُ على الشاطي به خضرا
وفيه لاقى أخاهُ السيّدَ السّيدُ(٣٣)

هزائم عربية

ومع توالي الأيام والسنين بدأت تخفتُ أصداءُ تلك الأيام الزّاهرة التي عاشها أهلُ جبلُ طارق في عهد الدولة المُوحّديّة، وبدأت ملامحُ الضّعف والانحلال تظهر في تلك الدولة المغربية الأندلسية العتيدة، وستكون هزيمة وقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ بداية النهاية للإمبراطورية الموحدية، وإيذاناً حقيقياً بضياع الأندلس.

> لاشكّ أنّ سقوط جبل طارق بيد المسيحيين كانَ فجيعة كُبرى، إذْ ما لبثَ أنْ هوَى صرحُ الأندلس، ولمْ يبقَ للحياة «سرُّها» بذلك الصّقع بعد ضياع الجبل

وتوالت الهزائم العربية بالأندلس، فاستولى فرناندو الثالث على قُرطبة عام ١٢٣٦م، وبعد ذلك بسنتين ـ ١٢٣٨م ـ استولى على إشبيلية. وفي عام ١٢٣٨م استولى خايمي الأول ملك أراغون على بلنسية.

وانحصر الحكم العربي بالقسم الجنوبي الشرقي من الأندلس الكُبرى، الذي يشمل أقاليم: غرناطة ومالقة والمَرِيّة، حيث نجح محمد بن يوسف بن نصر قائد قرية أرْجُونَة Arjona بتأسيس الدولة النصرية على أنقاض الدولة الموحدية بالأندلس عام ١٢٣٢م، أصبحت غرناطة Granada عاصمتها عام ١٢٣٨م، وعُرفتْ فيما بعد بمملكة غَرْنَاطة(٣٤).

وكان قيام الدولة النصرية بالأندلس في حاجة إلى دعم ملوك المغرب، فاستنصر أهلُ الأندلس بملك المغرب يعقوب بن عبدالحق المريني (٦٠٩ ـ ٦٨٦هـ) الذي اجتاز إلى الأندلس أربع مرات وهَزَم القشتاليين أشدّ هزيمة حتى قال بعضهم: ما نَصر المسلمون منْ العقاب حتى دخل يعقوب المريني. ثُمّ تتابعت غزواته بالأندلس وجوازُه للجهاد، وكان له من بلاد الأندلس: الجزيرة الخضراء، وطريف، وجبل طارق، ورُنْدة(٣٥).

وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها المغاربة والأندلسيون على القشتاليين، الراغبين في انتزاع ما تبقى من الأندلس الكُبرى، فإنّ حلْم قشتالة بامتلاك منفذ على مضيق جبل طارق دفع بفرناندو الرابع إلى التحالف مع ملك أراغون الذي أرسل

مسجد قرطبة

أسْطُولَهُ البحريّ لمساندة القشتاليين على احتلال جبل طارق، ونجحوا في ذلك سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م، حيث احتل الجبل بعد حصار شديد حوله من البر والبحر(٣٦).

نجدة

وبذلك تحقق حلْمُ قشتالة، وكان استيلاءُ النصارى على جبل طارق سنة ٧٠٩هـ أكبر نكبة أصابت الأندلس منذ سقوط قواعدها الكُبرى، وشعرت الدولة النصرية بفداحة النكبة، فقصَدَ ابن الأحمر ملك غرناطة مدينة فاس مستنجداً بملك المغرب أبي الحسن المريني، شارحاً له ما ترتَّبَ على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين النصرية والمرينية، ورَجاهُ الغَوْثَ والعون(٣٧).

وقد استجاب أبو الحسن المريني لدعوة ابن الأحمر وبَعَثَ الإمداد بقيادة ولده أبي مالك لمنازلة جبل طارق وافتتاحه، وتلاحقت في أثرهم السُّفن تحمل المدد والعُدد والمُؤن، وحشَدَ ابن الأحمر قُوَّاته وزحف على الجزيرة الخضراء واستولى عليها، وطوَّقَ المسلمون جبل طارق من البرّ والبحر، ورابَطَ أسطول المغرب في مياه المضيق ليحول دون وصول الإمداد إلى النصارى بالجبل، وهُرِعَ ملكُ قشتالة ألفونسو الحادي عشر في قوة من الفُرسان لإنجاد الحامية المُحاصرة، فبادرت القوات الغرناطية بقيادة الحاجب رضوان النُّصْرِيّ إلى مهاجمة النصارى وهزمهم بأحواز جبل طارق، ثم شدَّدَ المسلمون الحصارَ على الثَّغْر المنيع حتى استعادوه في أواخر سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م بعد أن لَبِثَ في حوزة النصارى نحو ٢٤ عاماً، ويرجعُ الفضل في استرداده إلى معاونة السُّلْطَان أبي الحسن المَريني ملك المغرب(٣٨).

وقام أبو الحسن المريني بتحصين الجبل وتسويره وبناء أبراجه وجامعه ودوره، كما حصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته(٣٩).

وهكذا استعاد المغاربة والأندلسيون جبل طارق، ولكن قشتالة لم تتخل عن حلمها القديم فعاودت مهاجمة المسلمين بمياه مضيق جبل طارق وألحقت بهم هذه المرة هزيمة قاسية تُعرف بوقعة طَرِيفْ Batalla del Rio Salado سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م استشهد فيها نُخبة من الأجناد والعلماء. وأعقب هذه الهزيمة احتلال النصارى للجزيرة الخضراء عام ١٣٤٤م واستيلاؤهم على السفن والمراكب المغربية والأندلسية(٤٠).

وفي سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء في محاولة للاستيلاء على جبل طارق، فحاصروه زُهاء سنة ثُمّ اضطروا إلى رفع الحصار سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م بعد أن فَشَا وَبَاءُ الطاعون في الجيش النّصراني(٤١).

وقد استطاع القشتاليون أن ينتزعوا الجزيرة الخضراء من المرينيين وجعلوا منها قاعدة لمهاجمة أراضي مملكة غرناطة.

وفي المغرب ستدخل الدولة المرينية بعد وفاة السُّلطان أبي الحسن سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م في مشكلات داخلية أدّت إلى انقطاع الجيوش المغربية من العُبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى الغُزاة، وبذلك سوف تفقد غرناطة تلك المساندة المغربية التي كانت تَدّخرُها وقت الشّدائد(٤٢).

وستكثر النداءات من الأندلسيين إلى السلطان أبي عنان المريني لإنجاد الأندلس والتمسك بجبل طارق، ولعل في رسائل ابن الخطيب إلى السلطان المريني ما يدلُّ على المكانة التي كان يحتلها جبل طارق في وجدان المغاربة والأندلسيين، فقد دعا لسان الدّين بن الخطيب هذا السلطان المريني إلى الاعتناء بذلك الثّغر المنيع، ووصف هذه الدعوة بأنها عنوان كتابه ورسائله، لأن جبل طارق - حسب تعبيره - هو باب الأندلس وركابُ الجهاد وحَسَنَةُ بني مرين ومآثرُ آل يعقوب وكرامة الله للسلطان أبي الحسن(٤٣).

ولكنّ الخلافات التي نشبت بين البلاط النصري والبلاط المريني قطعت كلّ أمل للتقارب والتحالف من أجل مواجهة النصارى الذين يقتطعون ما تبقى من البقية الباقية من الأندلس. وكان لسانُ الدّين بن الخطيب إحدى ضحايا ذلك الصراع المريني، وقصته معروفة في المصادر التاريخية(٤٤).

وفي الأندلس اعتلى عرش مملكة غرناطة السلطان محمد الخامس النصري الملقب بالغنيّ بالله (١٣٦٢م - ١٣٩١هـ) الذي استطاع استعادة رُندة Ronda إلى حُكمه بعد أن كانت تحت حكم بني مرين، وتحرير الجزيرة الخضراء من الاحتلال القشتاليّ عام ١٣٦٩م، وطَرْد المَرينيّين من جبل طارق آخرُ معاقلهم بالأندلس فَمَحَا دعوتهم معًا وراء البحر(٤٥).

ومن حكام جبل طارق في العصر المرينيّ: أبو بكر السعيد ولد السلطان أبي عنّان(٤٦)، والشيخ عيسى بن أبي الحسن بن أبي مَنْديل(٤٧)، وسليمان بن داوُد بن أعراب(٤٨).

البداية الحقيقية لتعمير جبل طارق وتمتيعه بكل مرافق وخطط المدينة الإسلامية كانت في العصر الموحدي، حين أمر الخليفة عبدالمؤمن بن علي الكومي ببناء مدينة كبرى في جبل طارق

مقصد العلماء والشعراء

وقد ظل جبل طارق مقصداً لأهل العلم والأدب طوال عصوره الإسلامية وقد ذكرنا العلماء والشعراء الذين وردوا عليه سنتي ٥٥٥هـ و ٥٥٦هـ، وهم: القاضي أبو بكر العاقبي، والفقيه أبو بكر بن الجد، وابن حبوس الفاسي، والأصمُّ المَرواني، وأبو العباس بن سيِّد، وأبو عبدالله الرُّصافيّ البلنسيّ، وأبو القاسم بن إدريس الرُّندي، وأبو جعفر بن سعيد العَنْسيّ، وأبو بكر بن المُنخُل الشّلبيّ، وأبو عبيدالله بن صاحب الصلاة الباجيّ، وابنُ لُبّال الشّريشي، وأبو عمر بن حزبون، وابنُ صاحب الصلاة مؤلف «المَنّ بالإمامة» وغيرهم كثير.

ونُضيف إلى هذه الجماعة طائفة أخرى من الشُّعراء والأدباء والعلماء الذين وفدوا على جبل طارق وسكنوه وطاب لهم المُقامُ به وامتدحوه بقصائدهم منهم:

- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الذي أقبل على جبل طارق مع والده من جهة سبتة في البحر، وقال: «فنظرنا إليه على تلك الصفة فقال والدي: أجزْ:

انظر إلى جبل الفتح راكبًا متن لُجّ

فقلتُ:

وقد تفتّح مثل الأقحوان في شكل سرْج»(٤٩).

- أبو الحسن مُطرِّف بن مُطرِّف شاعرٌ غرناطة المتوفى في وقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ، الذي قال في وصف جبل طارق:

وأقودَ قد ألقى على البحر مَتْنَهُ
فأصبحَ عَنْ قودِ الجبالِ بمعزلِ
يُعرِّضُ نحوَ الأفقِ وجهاً كأنّما
تُراقبُ عيناهُ كواكبَ منزلِ(٥٠)

- محمد بن يحيى العَبْدري الصَّدَفيّ الفاسي، كان إماماً في العربية، ذاكراً في اللغة، حسن الإقراء، جيّد العبارة، متين المعارف والدِّين، شديد الورع متواضعاً جليلاً عالماً عاملاً، سكن جبل طارق وتُوفي مستشهداً بمرساه، دخل العدوُّ عليهم فقاتل حتى قُتل وذلك في سنة ٦٥١هـ(٥١).

- ابن الزُّبير الغرناطي (٦٢٨هـ - ٧٠٨هـ) مؤلف كتاب «صلةُ الصِّلة» كان يتردد على جبل طارق لزيارة شيخه أبي الفضل يوسف بن يحيى بن أبي الدُّنيا الأنصاري الجيَّاني إمام جامع جبل طارق، ترجم له في «صلة الصِّلة» ومن جُملة ما قاله في حقه: «سكن جبل الفتح مدةً طويلةً وولي قيادته وحُكمه بعد موت أخيه عبدالعزيز، واستمر على ذلك إلى وفاته، وكان من أهل الخير والفضل والدِّين المتين والتخلُّق والإيثار، منقطعاً بحصنه عن الناس، مقتصداً في عيشه ولباسه يتحرَّفُ بيده ويعمل نفسه فيما يقيم به أوده، ويؤْثِرُ ويؤْثِرُ في حصنه معدوداً في صُلحاء المسلمين، ذاكراً لحظٍّ من الأدب، نَبيه الأغراض، لَقيتُه بالجزيرة الخضراء، وصحبتُه إلى موضعه بجبل الفتح برغبته في ذلك، وأنشدني من شعره، وأخذتُ عنه وتكرَّرتُ عليه بموضوعه وتوفي بالجبل المذكور بعد تأليفي لهذا الكتاب وكان ذلك في سنة ٦٧٨هـ أو ٦٧٩هـ رحمه الله..»(٥٢).

- الرحالة الطُّنْجي ابن بطوطة زار جبل طارق سنة ٧٥٠هـ وأعجب به وتمنى أن لو رابطَ به إلى نهاية عُمره، ورواية ابن بطوطة تنفردُ بذكر أشياء جديدة حول جبل طارق، قال الرحالة الطُّنْجي: «وأوَّلُ بلدٍ شاهدته من البلاد الأندلسية جبلُ الفتح، فلقيتُ به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السَّراج الرُّنْدي وقاضيه عيسى البِرْبري، وعنده نزلتُ وتطوَّفتُ معه على الجبل، فرأيت عجائب ما بنى مولانا أبو الحسن رضي الله عنه وأعدَّ فيه من العُدد، وما زاد على ذلك مولانا (أبو عنان) أيَّدهُ الله، ووددتُ أن لو كنت ممَّن رابطَ به إلى نهاية العُمر»(٥٣).

- ابنُ جُزَيّ الغرناطي (ت: ٧٥٧هـ) كاتب «رحلة ابن بطوطة» كان واحداً من الذين أقاموا بجبل طارق، ولم يفُتْهُ أن يُسجل نُبذةً من تاريخ جبل طارق مُذيلاً على كلام ابن بطوطة.

ذكر ابن جُزَيّ عن جبل طارق ما يأتي: «جبلُ الفتح هو معقلُ الإسلام، المُعترض شجىً في حلُوق عبدة الأصنام، حصنةُ مولانا أبي الحسن رضي الله عنه المنسوبة إليه، وقُربته التي قدَّمها نُوراً بين يديه. محلُّ عند الجهاد، ومقرُّ أساد الأجناد، والثَّغرُ الذي افتر عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان. ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه، فنُسب إليه، فيُقال له «جبل طارق» و «جبل الفتح» لأنَّ مبدأه كان منه وبقايا السُّور الذي بناه ومن معه باقية إلى الآن، تُسمى بسور العرب، شاهدتُها أيَّام إقامتي به عند حصار الجزيرة أعادها الله. ثُمَّ فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدي الرُّوم بعد تملُّكهم له عشرين سنة او نيفاً، وبعث إلى حصاره ولدَهُ الأمير الجليل أبا مالك، وأيَّدهُ بالأموال الطائلة والعساكر الجرَّارة. وكان فتحه بعد حصار ستَّة أشهر وذلك في سنة ٧٣٣هـ، ولم يكن حينئذٍ على ما هو عليه الآن فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المأثرة العُظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك بُرْجاً صغيراً تهدم بأحجار المجانيق، فبناها مكانه. وبنى به دار الصناعة (دار صناعة السُّفن)، ولم يكن به دار صنعة. وبنى السُّور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء، الآخذ من دار الصَّنعة إلى القرمدة..» ثم تطرَّق ابن جُزَيّ إلى ثورة عامل أبي عنان على جبل طارق عيسى بن أبي مَنْديل الذي ثار بالجبل ثم أُخمدت ثورته، وختم كلامه بإيراد قصيدة الرُّصافي البلنسي في مدح عبد المؤمن(٥٤).

- أبو الحجَّاج المُتشاقري قاضي رُنْدة، وصفهُ تلميذه لسانُ الدِّين بن الخطيب: «حسنةُ الدَّهر الكثير العُيوب، وتَوبةُ الزَّمان الجمِّ الذُّنوب، ما شئتَ من أدب يتألَّق، وفضل تتعطَّرُ به النَّسمات وتتخلَّق، ونفس كريمة الشَّمائل والضرائب».

وظل جبل طارق منزلاً للجيوش المغربية الواردة على الأندلس للجهاد، وكان الشاعر ابن زيدون يرى أن جبل طارق هو أفضل موضع تنزله العساكر المرابطة

وقد أطنب ابن الخطيب في وصف مزايا شيخه المُنْشاقري الذي لقيه مرّة بجبل طارق، إذ قال: «وكُنْتُ أتشوق إلى لقائه فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقيا لم تبلّ صدى، ولا شفت كمدا، وتعذّر بعد ذلك لقاؤه»(٥٥).

- لسانُ الدين بن الخطيب (٧١٣هـ - ٧٧٦هـ): الأديب والشاعر والوزير الغرناطي المعروف، كان يتردد على جبل طارق، وكان به سنة ٧٧٢هـ(٥٦) ولاشك أنّه زار الجبل قبل هذا التاريخ، وامتدحه وأطنب في وصف محاسنه في كتابه «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، جاء في الكتاب المذكور ما يأتي: «جبلُ الفتح: فاتحةُ الكتاب من مُصْحَف ذلك الإقليم، ولَطِيفةُ السَّمِيع العليم، وقصصُ المهارق، وأُفقُ البارق، ومتحفُ هذا الوطن المُبان للأرض المفارق، مأهلُ العقيق وبارق، ومحطُّ طارقها، بالفتح طارق. إرمُ البلاد التي لم يُخلق مثلُهُ فيها، ولَو الثاقب التي لا تحصرُها الألسنة ولا تُوفيها.

حجزُهُ البحرُ، حتى لم يبق إلا خصر، فلا بناله - من غير تلك الفُرصة - ضيقٌ ولا حصرٌ، وأطلّ بأعلاهُ قصرٌ، وأطلّهُ فتحٌ - من الله - ونصرٌ.

ساوق سورهُ البحر فأعياه، قد تهلّل بالكئس محيّاهُ، واستقبل الثغر الغريب فحيّاه. أطرد صنع الله فيه، من عدوٍّ بكفيه، ولُطف يُخفيه، وداء عُضال يُشفيه. فهو خلوةُ العُبّاد، ومقامُ العاكف والبادِ، ومسلحة من وراءه من العباد، وشقّةُ القلوب المسلمة والأكباد. هواؤهُ صحيح، وثراهُ - بالخزين - شحيح، ونجرُ الرِّباط فيه ربيح، وحماهُ - للمال والحريم - غير مبيح، ووصفهُ الحسنُ لا يُشانُ بتقبيح. إلا أنّهُ - والله يقيه مما يتّقيه - بعيدُ الأقطار، ممار بالقطار، كثير الرياح والأمطار. مُكتنفٌ بالرَّمْل المُخْلِف، والجوار المُتْلِف. قليل المرافق، معدوم المشاكل والمرافق. هزل الكراع لعدم الازدراع، حاسر الذِّراع، للقراع، مُرتزقٌ من ظلّ الشُّراع، كُورة دثر، ومعتكفٌ أزلٌ وصِير، وساكنه حيٌّ في قبر.

هَوَ البابُ إنْ كانَ النِّزاوُرُ والتَّقِيا
وغوثٌ وغيثٌ للمُريغ وللسُّقيا
فإنْ تطرق الأيّامُ فيه بحادثٍ
واعْزُزْ به قُلنا: السّلامُ على الدُّنيا»(٥٧)

جبل طارق على طابع إنجليزي

وكان ابن الخطيب قد شكا إلى السلطان المريني بالمغرب الحالة المزرية التي طار إليها جبل طارق، مع ما يتهدّده من هجمات النصارى ومحاولات السيطرة عليه(٥٨).

- أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن عبدالرحمن المعروف بالقباب، من أهل فارس، تولى القضاء بجبل طارق، وتوفي بفاس سنة ٧٧٨هـ(٥٩)، وبخزانة جامع القرويين بفاس بعض تآليفه المخطوطة(٦٠).

- ابن زَمرك الغرناطي شاعر الحمراء، قال قصيدة يصف فيها زهْر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل طارق، منها:

أتوني بنوّارٍ يَروقُ نُضارةً
كخدّ الذي أهوى وطيب تنفسه
وجاؤوا به من شاهقٍ متمنّعٍ
تمنّعَ ذاكَ الظّبْي في ظلّ مكنسه
رعَى الله منّي عاشقًا متقنّعًا
بزهْر حكى في الحُسن خدّ مؤنّسه

ومنها:

رعَى الله زهْرًا بنتمي لقرنفلٍ
حكَى عرفُ منْ أهْوَى وإشراقَ خدّه
ومنبتُهُ في شاهقٍ متمنّعٍ
كما امتنعَ المحبوبُ في تيه صدّه

أميلُ إذا الأغصانُ مالت بروْضةٍ
أعانقُ منها القُضْبَ شوقًا لقدِّهِ
وأهفو لخفّاق النّسيم إذا سَرَى
وأهوى أريجَ الطّيبِ منْ عَرْفِ ندِّهِ

ومنها أيضًا:

يقِرُّ بعيني أنْ أرى الزّهْرَ يانعًا
وقد نازع المحبوب في الحُسْنِ وصْفَه
وَمَا أبْصَرَتْ عيني كَزَهْرِ قرنْفلٍ
حكَى خدَّ مَنْ يسْبِي الفؤاد وعَرْفَهُ
تمَنَّعَ في أعلى الهضابِ لِمَجْتَنٍ
تَمَنُّعَهُ منّي إذا رُمْتُ إلْفَهُ
وفي جَبَلِ الفتح اجْتَنَوْهُ تفاؤلاً
بفتحٍ لبابِ الوصلِ يَمْنَحُ عطفَهُ
وَمَا ضَرَّ ذاكَ الغُصْنَ وهو مُرَنَّحٌ
إذا ما ثنى نَحْوَ المُتَيَّمِ عطفَهُ(٦١)

هذه مقاطع من قصيدة بن زَمْرَكْ في زهر القرنفل الذي كان ينمو بكثرة بجبل طارق، وكان اجتناؤه صعبًا لأنّه ينبتُ بأعلى الجبل، وكان الأندلسيون يعدّون شراء الأزهار من جُمْلَة نفقة البيت(٦٢).

- الإمامُ أبو عبدالله محمد المَقّري التلمساني (جدُّ مؤلف «نفحُ الطّيب») المتوفى سنة ٧٥٩هـ، كان ممّن أقام بعض الوقت بجبل طارق(٦٣).

- أبو القاسم مُحمد بن أحمد بن حاتم المالقيّ، الشاعر المُفْلِقُ، كان يتولى قضاء جبل طارق في بداية العقد الثاني من القرن ٩هـ(٦٤).

- السلطان النّصْريّ أبو الحجّاج يوسُف الثالث (٧٧٨هـ - ٨٢٠هـ)، حكم مملكة غرناطة من سنة ٨١٠هـ إلى ٨٢٠هـ، وكان شاعرًا مُجيدًا، له ديوان شعرٍ(٦٥)، وقصائد أخرى في «مَظْهَرُ النُّورِ الباصِرِ»(٦٦).

وفي «نفح الطّيب»(٦٧)، وكان هذا السلطان كثير التّردُّد على جبل طارق، ومن قصائده: قصيدة قالها عند افتتاحه للجبل في أوّل جمادى الأخرة سنة ٨١٧هـ، منها:

في المُلْحِدين عِداتنا لِنْجَازِ
حَيْثُ الحقيقةُ لمْ تدنْ بِمَجَازِ
عنا الكتائبُ دائمًا إنْجَادُها
مُتَضَافِرُ الإغْراءِ بالإيعَازِ
ولنا المنابر أصْدَرَت دعواتها
بعَوارفِ الإعلاءِ والإعْزَازِ
خُطَبَاؤها أهلاً بهم قدْ أعلنوا
ببلاغةِ الإطْنابِ والإيجَازِ
وطريقنا الأهدى لحلّة طارق
لمْ يدْرِ إلا عَزْمَةُ الإجْهَازِ
ومَعَادُنا الأرضى من اسْتِفْتَاحِهِ
قدْ زَانَ حُلّة فَخْرِهِ بِطِرَازِ
وزَهَى المَرْكَبُ والبَسِيطُ بأنْ زكَا
عَمَلُ المُقيمِ الرّحلِ والمُجْتَازِ
وبِبَذْلِنَا الآلاف بحت نضَارِهَا
لمْ يثْنِجِدْ سَبَبًا إلى الإكْنَازِ
في نُصْرَةِ الإسلامِ قدْ جُدْنا بها
ليُثِيبَنَا ربُّ العُلى ويُجَازِي(٦٨)

ولَهُ من قصيدة أخرى بجبل طارق:

لمن راية حمراء ترتاح بالنصر
تطيفُ حواليها حُماةٌ بني نَصْر
إلى جَبَلِ بالفتح يصْدُقُ فألُهُ
فبَعْدَ تولّي العُسْرِ لا بُدَّ منْ يُسْر(٦٩)

والقصائد التي نظمها هذا السلطان الشاعر بجبل طارق كثيرةٌ(٧٠).

- عبدالكريم القَيْسي البَسْطي آخرُ شُعراء الأندلس، عَاشَ مُعظم القرن ٩هـ/١٥م، وكان لجبل طارق مكانةٌ خاصةٌ في قلب هذا الشاعر، حيث وصفهُ في إحدى قصائده بـ «دُرَّةِ السِّلْكِ»(٧١)، ورثاهُ بقصيدة مُؤثرة حين سقط بيد النصارى سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٣م، جاء في ديوانه ما يأتي:

«وقُلْتُ عندما وصل خَبَرُ أخْذِ جبل طارق في التاريخ المذكور (٨٣٦هـ):

أوَارِي أوارَ القلبِ مع شِدَّةِ اللّفْحِ
فتُبْدِيهِ عَيْنٌ دمعُها دائمُ السَّفْحِ
وأخْفِي الذي ألْقَى منَ الحُزْنِ والأسى
وظاهِرُ حالي الدّهْرَ يُؤْذِنُ بالصّفْحِ
وأبْدِي منَ التّقْطِيبِ لِلْفَتْحِ حَالَةً
تَسُوءُ صديقي في مساءٍ وفي صُبْحِ

وقـــاتلةٍ مـــالي أراكَ مُـــقطّبـــا
كـــأنّكَ للتّـــقطيبِ هدّدْتَ بالذّبحِ
وعهْدي ـ ولا أخْفي ـ صفاتٌ عرفْتُها
تُسَـرُّ بها تُهْدي منَ البِشْـرِ والسّمْحِ
فقُلْتُ دعيني: الحزْنُ فرْضٌ على الورَى
أمـا قـدْ حَـوَى أعْـداؤنا جَـبلَ الفـتحِ
حَـرامٌ علينا البِـشْـرُ والسّمْحُ بَعْـدَهُ
وفي القلْبِ منْ آلامِـــه أعْظمُ الجُـرْحِ
عَسَى منْ قضَى فيـه بأخْـذِ يَعِـيدَهُ
ويَذْهبُ مـا أشْكُوهُ منْ شِـدّةِ القَـرْحِ

فـمِنْهُ تَعَـالى نَرْتَجي الخَـيْـرَ كُلّهُ
ومَازالَ أهْلُ الفضْلِ والمنّ والمِنَحِ»(٧٢)

الحزن فرض

وقد رأيتُ من المفيد إيراد تعليق الدكتور محمد بن شريفة على هذه القصيدة: «إنّ حَسْرَةَ الشاعر بالغةٌ وحزْنَهُ شديدٌ ومَنْ يقرأ هذه الأبيات يظُنُّ أنّ الشاعر يبكي مصيبةً خاصةً به وليستْ عامةً بالمُسْلمين، وهو يرى أنّ الحزن يجب أن يكون فرضًا على جميع الناس بعد سقوط جبل الفتح، وذلك لأن هذا الجبل كان يُمثّلُ صلة الوصل مع أهل المَغرب الذين اعتادوا أن يَهُبُّوا لنجدة إخوانهم»(٧٣).

الهوامش والمراجع

١. ابنُ صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: عبدالهادي التازي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٧م (الطبعة ٣)، ص٩٠، ٩٢، ١٢٨، ١٣٠ / المقرّي التلمساني: نفحُ الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٨ مجلدات)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت ١٩٨٨م، ج١ ص ٢٢٩ ج٣ ص١٢١. ويقولُ الشاعر الأندلسي:

هَلْ بحرُ الزّقاق حتى ركبنا
بسواهُ فهانَ بحرُ الزّقاق

2 - Gran Cronica De Alfonso XI (2 Tomos). Madrid - 1977., Cap. CCxlv. p.245.

٣. من الأبحاث التي اهتمت بمضيق جبل طارق في العصر الوسيط، انظر: «الدّور التاريخي لمضيق جبل طارق في العصر الوسيط» للأستاذ محمد الوكار (دراسة لنيل الماجستير في التاريخ/كلية الآداب بالرباط ـ ١٩٨٩م).

٤. ابن عبدالمنعم الحميري: الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٨٤م، ص٣٥، ٢٢٤/ نفح الطيب: ج١ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢.

٥. انظر خطبة طارق بن زياد في المصادر الآتية: ابن خلّكان: وفيات الأعيان (ج ٥)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت ١٩٧٠م، ج٥، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢/ نفح الطّيب: ج١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

٦. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق: طلال حرب، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٢م، ص ٧٧٥.

٧. ابن الأبار: الحلّة السّيراء (الجزء الثاني)، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٥م (الطبعة ٢)، ج٢ ص ٩٩.

٨. الرّوض المعطار: ص ٢٢٤ ـ ٢٨٢.

٩، ١٠. المنّ بالإمامة: ص ٨٤ ـ ٨٧ ـ ٨٨.

١١. دلّدَش (عصمت): الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٨م، ص ١١٩، التعليق رقم: ١٣.

١٢. المن بالإمامة: ص ٨٤ ـ ٨٩.

١٣. المن بالإمامة: ص ٨٩.

١٤. أقام عبدالمؤمن بجبل طارق من شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ إلى أوائل سنة ٥٥٦هـ. (المن بالإمامة: ص ٩٢ ـ ١١١).

١٥. المرّاكشيّ (عبدالواحد): المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العُريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب ـ الدار البيضاء ١٩٧٨م (الطبعة ٧)، ص ٣١٠ ـ ٣١١/ مؤلف مجهول: الحُلَلُ الموشية في ذكر الأخبار المَرّاكشية، تحقيق: سُهيل زكّارُ وعبْد القادر زمامة، دار الرّشاد الحديثة ـ الدار البيضاء ١٩٧٩م، ص١٥٥.

١٦. الروض المعطار: ص ٣٨٢.

١٧. المن بالإمامة: ص ٩٢ ـ ٩٥.

١٨. المُعْجب: ص ٣١١.

١٩. المُعْجب: ص ٣١٤ ـ ٣١٥/ نفح الطّيب: ج٣ ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣.

٢٠. المنّ بالإمامة: ص ٩٩ ـ ١٠٢/ المُعْجبُ: ص ٣١٦/ نفح الطيب: ج١ ص ٢٠٠.

٢١. ابن عسكر وابن خُميس: أعلام مالقة، تحقيق: عبدالله المَرابط التّرغي، دار الغرب الإسلامي، دارُ الأمان ١٩٩٩م، ص ٩٤ ـ ٩٧/ المُعْجب: ص ٣١٦ ـ ٣١٣/ابن سعيد: المغرب في حُلى المغرب (جزءان)، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٤م (الطبعة ٣)، ج ٢ ص ٣٤٣.

٢٢. نفْحُ الطّيب: ج ٤ ص ٢٠٢

٢٣. الحُلَلُ الموشية: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

٢٤. المن بالإمامة: ص ٩٥ ـ ٩٨.

٢٥. المن بالإمامة: ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

٢٦. ابنُ شريفة (مُحمد): ابن لُبّال التّرْيشيّ (٨٠٠هـ ـ ٨٥٨هـ)، ص ٤٤ ـ ٤٦.

٢٧. المن بالإمامة: ص ١٠٢.

٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣. المن بالإمامة: ص ١١٠، ١١١، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٢، ١٨٤.

34 - Arie (Rachel): Apergus sur le royaume Nasrides de Grenade au XIve Siecle. Rev: Quaderni di studi Arabi (Venezia) Vol. 5-6, 1987 - 1988. P. 58.

٣٥. نفْحُ الطّيب: ج١ ص ١٣٨٥ ولايزال بخزانة القرويين بفاس الجزء التاسع من مخطوطة «مفاتيح الغيب» لمحمد بن عُمر الرّازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ، التي كانت من تحبيس (وقف) الفقيه الوزير أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد المرّيشي على طلبة العلم بجامع رَنْدة بتاريخ أواخر رجب من سنة ٧٧١هـ. (القاسمي مُحمد العابد): فهرس مخطوطات خزانة القرويين، الجزء الأول: دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، الجزء الثالث: الطبعة الأولى ١٩٨٣م. الجزء الرابع: الطبعة الأولى ١٩٨٩م. ج١ ص٤٨ رقم المخطوط ١٠).

٣٦. عنان (مُحمد عبدالله): نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٧م (الطبعة ٤)، ص١١٥ ـ ١١٦/ Arie: Aper-gus..., P.62

٣٧. نهاية الأندلس: ص١٢٣.

٣٨. نفح الطيب: ج٤ ص ٤٠٤/ نهاية الأندلس: ص٢٤/ ونقول الدكتورة رانسيل أرِيّ إنّ الانتصار المغربي الأندلسي جاء بمساندة من الأسطول الجنويّ P.62 ...-Arie: Apergus

٣٩. نفح الطيب: ج٤ ص ٤٠٤. الاستقصا: ج٣ ص ٩٩.

وقد استعاد المسلمون جبل طارق بعد ذلك، إلا أن المسيحيين بقيادة دُوق مدينة شذُونة Medina Sidonia: خُوان دي قُزمان Juan de Guzman وكونت أركُش El cond de Arcos أخذوه بصفة نهائية سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م(٧٤).

وفي رسالة صاحب الأندلس سعد المُستعين بالله إلى السلطان المملوكي خَشْقدم المؤرخة في جمادى الأولى سنة ٧٦٨هـ نقرأ ما يلي:

«وهذا العدو المشترك صاحب قشتالة ـ قصمه الله ـ في كل عام يهجم على بلادنا وثُغورنا، ويُجدد في كل ساعة ولحظة أشجان قلوبنا وصدورنا، تملّك في العام الفارط مدينة جبل الفتح من بلادنا، وهو محلّ الفتح الأول، والمعقل الذي عليه الاعتمادُ والمُعوّلُ، أزال عنه كلمة الإسلام، وعمّر مآذنه بالنواقيس ومساجده بالأصنام، وملأه بقوم يعبدون أوثانهم، ويُحكمون أصنامهم ويجدون فيه مع الساعات كُفرهم وطُغيانهم، أصيب منهم المسلمون بالمصيبة العظيمة، والفجيعة المُقعدة المُقيمة، ملأت القُلوب تفطُّراً، والنفوس تفكُّراً»(٧٥).

ولاشكّ أنّ سقوط جبل طارق بيد المسيحيين كان فجيعة كُبرى، إذْ ما لبث أن هوى صرح الأندلس، ولم يبق للحياة «سِرُّها» بذلك الصقع بعد ضياع الجبل، كما قال لسان الدين بن الخطيب:

فـإن تطرّق الأيام فـيـه بحـادث
واعـزز به قُلنا: السـلام على الدنيـا(٧٦)

---

٤٠. نفح الطيب: ج٤ ص ٣٨٦/ نهاية الأندلس: ص ١٢٨، ١٢٩.
٤١. نهاية الأندلس: ص ١٣٠ ـ ١٣٢.
٤٢. نهاية الأندلس: ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
٤٣. نفح الطيب: ج٤ ص ٤٠٨.
٤٤. نفح الطيب: ج٥ ص ١١٠ ـ ١١١.
٤٥. المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض (الجزء الأول). تحقيق: مصطفى السقا ـ إبراهيم الأبياري ـ عبدالحفيظ شلبي. منشورات: اللجنة المشتركة لنشر التراث ـ المملكة المغربية ـ دولة الإمارات. ج١ ص ٢٢٥ ـ ٢٣٧ / Arie: Apen- gue... P.62
٤٦. نفح الطيب: ج٤ ص ٤٢٩.
٤٧. رحلة ابن بطوطة: ص ٧٧٧/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (المجلد ١ و ٢). تحقيق: محمد عبدالله عنان. مكتبة الخانجي ـ القاهرة: ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م. ج٢، ص ٢٣ ـ ٢٤.
٤٨. نفح الطيب: ج٥ ص ١١٠/ الناصري (أحمد بن خالد): الاستقصا لدول المغرب الأقصى (الجزء ٢). بتحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري و محمد الناصري. مطبعة دار الكتاب. الدار البيضاء ١٩٥٤م. ج٢، ص ٩٩.
٤٩. نفح الطيب: ج١، ص ١٦٠.
٥٠. نفح الطيب: ج١، ص ١٦٠.
٥١. ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس (القسم الأول ـ الرباط ١٩٧٣م). ج١، ص ٢٢١.
٥٢. ابن الزبير: صلة الصلة (القسم الخامس). تحقيق: عبدالسلام الهراس والشيخ سعيد أعراب. منشورات وزارة الأوقاف المغربية ١٩٩٥م. ج٥، ص ٢٩٥، رقم ٩٩٦.
٥٣. رحلة ابن بطوطة: ص ٧٧٥.
٥٤. رحلة ابن بطوطة: ص ٧٧٥ ـ ٧٧٨.
٥٥. نفح الطيب: ج٤ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.
٥٦. نهاية الأندلس: ص ١٥٥.
٥٧. معيار الاختيار: ص ٨٢ ـ ٨٣.
٥٨. نفح الطيب: ج٤ ص ٤٠٤ ـ ٤١٥.
٥٩. الإحاطة: ج١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨/ ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال (الجزء الأول). تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. دار التراث ـ القاهرة. المكتبة العتيقة ـ تونس. ج١ ص ٤٧ ـ ٤٨ رقم ٦١/ جذوة الاقتباس: ج١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤/التنبكتي (أحمد بابا): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (جزءان). تحقيق: محمد مطيع. منشورات وزارة الأوقاف المغربية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. ج١ ص ٩٧ ـ ٩٨ رقم ٣٥.
٦٠. من مخطوطات أبي العباس أحمد القباب بخزانة القرويين بفاس:
ـ شرح بُنوع ابن جَماعة: مخطوطات رقم: ١١٣٥ و ١١٢٦ و ١٤١٦.
ـ شرح قواعد القاضي عياض: مخطوط رقم ٣٥٢.
٦١. نفح الطيب: ج٢ ص ٢٧٧.
٦٢. ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي: (تحقيق: جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي). بيت الحكمة ـ قرطاج ١٩٨٨م. ص٦٢/ البسطي آخر شعراء الأندلس: ص٦٦.
٦٣. أبو الأجفان (مُحمد): الإمام أبو عبدالله محمد المقري التلمساني. الدار العربية للكتاب ١٩٨٨م. ص٧٧.
٦٤. ديوان ابن قُركُول (تحقيق: محمد بن شريفة). منشورات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٧م. ص٣٠٣.
٦٥. من هذا الديوان مخطوطة فريدة توجد بمكتبة عبدالله كنّون بطنجة وتحمل رقم: ١٠٣٥١. ثم قام الشيخ عبدالله كنّون بتحقيق هذا الديوان ونشره. فطبع أول مرة بتطوان عام ١٩٥٨م. ثم طبع مرة ثانية بمصر عام ١٩٦٥م. العنّاب (عبدالصمد): فهرس مخطوطات مكتبة عبدالله كنّون. منشورات وزارة الأوقاف المغربية ١٤١٨هـ/١٩٩٩م.
٦٦. ديوان «مظهر النور الباصر» جمع أبي الحسين ابن قركون. تحقيق: محمد بن شريفة. الدار البيضاء ١٩٩١م. ص١٥ ـ ٢٥.
٦٧. نفح الطيب: ج٤ ص ٣٠٣، وكان أهل جبل طارق قد ثاروا في عهد يوسف الثالث بعد سنة ٨١٣هـ. وعزموا على الانضمام إلى الإيالة المغربية. إلا أن السلطان يوسف الثالث سرعان ما نجح في قمع هذا التمرد (نهاية الأندلس: ص١٥٣/ بنّ شريفة (مُحمد): حقائق تاريخية جديدة من خلال ديوان ابن قُركون (ضمن كتاب: عبدالله كنّون بين التكريم والتنابين. ص٦١ ـ ٦٥). المطابع المغربية والدولية بطنجة ١٩٩١م. ص ١٣).
٦٨. ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: (تحقيق: عبدالله كنّون). مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م (الطبعة٢). ص٨٧.
٦٩. ديوان ملك غرناطة: ص١٥.
٧٠. ديوان ملك غرناطة: ص ٢٦ ـ ٢٨، ٣٠ ـ ٣٣، ٣٤ ـ ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٨٧، ١٠٢ ـ ١٠٤/ نفح الطيب: ج٤ ص ٣٠٣.
٧١. ديوان عبدالكريم القيسي: ص٣٦٣.
٧٢. ديوان عبد الكريم القيسي: ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
٧٣. ابن شريفة (مُحمد): البسطي آخر شعراء الأندلس. دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٥م. ص١٦٩ ـ ١٧٠.
74 - Arie (Rachel): L'espagne Musulmane au Temps des Nasrides (1232 - 1492). Paris 1973.
٧٥. البسطي آخر شعراء الأندلس: ص١٧٠.
٧٦. معيار الاختيار: ص٨٣.

المصدر: مجلة الفيصل، العدد: 314